٦/٣: بعض الدروس المستفادة حول الوقت في حياة الأنبياء:

بالتوغل في قصص الأنبياء التي تنطوي على أخبار ودروس بالغة التميز لفئة بشرية تتربع على قمة الرقي البشري، استطعنا أن نشتق بعض النقاط التي يمكن أن تفيدنا في التعرف على المزيد حول أهمية الوقت وبعض الأبعاد الأخرى المتعلقة به. وإن كان ذلك لم يكن يمثل عنصراً أساسياً في بناء القصص المذكورة ولكننا نؤمن بإتصاف القصص القرآني بالثراء غير المحدود في الفكر وفي التجارب وفي الدروس المستفادة. فقط على القارئ أن يقرأ، ويستقرئ، ويتعمق بين طيات الأحرف ولن يخرج بعد هذا خاوي الوفاض الفكري أبداً. وهانحن نعرض بعضاً من القواعد العامة والدروس المستفادة التي يمكن أن نستفيد بها من استقرائنا للقصص القرآني النبوي، في تعميق وتأصيل جذور نظرية الوقت وفقاً للرؤية الإسلامية وتوجيهاتها الرشيدة.

(١) في الحياة الدنيا لكل وقت نهاية لأنها ذاتها لها نهاية (قصة آدم عليه السلام):

فعندما عصى آدم وحواء ربهما وقضى عليهما بالاستقرار على الأرض لم يكن ذلك الأمر بشكل أبدي مخلد ولكنه أشير بصراحة ووضوح بأنه سيكون (إلى حين) أي حتى وقت معلوم لا يعرفه إلا الله عز وجل. ويتضح ذلك من قوله تعالى: ﴿**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا**

فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (البقرة: ٣٦).

وبالإضافة إلى قاعدة **أن لكل وقت دنيوى نهاية**، فهناك قاعدة أخرى فرعية يمكن أن نشتقها من المعنى المباشر للآية وهو أن **الحكم القضائى لابد أن يرتبط بفترة زمنية ملائمة** يجب على القاضى تحديدها مسبقاً وقت تحديد العقوبة.

(٢) التعجيل الزمنى ما أمكن بالتخلص الصحى السليم من مصادر التلوث البيئى ومسبباته (قصة هابيل وقابيل): وذلك الدرس المستفاد ينفعنا فى مجال اقتصاديات الصحة والبيئة. فكثيراً ما نضج بظواهر التلوث البيئى المنتشرة بشكل متضخم خاصة فى وقتنا الحاضر، ومع هذا، مازالت الصحة تتفاقم أحوالها نتيجة لانتشار تلك الملوثات بشكل غير صحى بين البشر والمخلوقات النافعة، وحتى إن تم التخلص منها، فيكون بشكل بطئ أو فى ميعاد متأخر بعد أن تكون الأعراض السيئة قد نالت أعداداً كبيرة من الفئات محل الرعاية والتخوف. وفى قصة قابيل وهابيل، نجد أنه بعد أن قتل قابيل أخاه هابيل لم تستطرد الآيات الكريمة فى توضيح ما سوف يلاقيه من عقوبة. ووصف فحش ما قام به من فعل شديد البشاعة، وذلك بقدر ما استطردت في توضيح كيفية مواراة جثة القتيل ووسيلة تعليم القاتل كيفية مواراتها بشكل سليم ويلاحظ أن القاتل لم يبد ندمه عند القتل. ولكن ندمه الحقيقى شعر به عندما أدرك جهله بكيفية مواراة جثة أخيه

بالطريقة اللائقة. وتتضح تلك المعاني في قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ (المائدة: ٣٠، ٣١).

ومن تلك الآيات الكريمة يمكن أن ننتهي باستنتاج ضرورة دفن جثة الميت بأقصى سرعة ممكنة لأنها تبدأ بعد وقت سريع في التحلل والتعفن وبالتالي فهي تتسبب في إيذاء البشر والمخلوقات الحية الأخرى بما يصدر عنها من روائح كريهة وأشكال تلوثية مكروهة جداً. وقد يكون ذلك وراء المقولة الشهيرة «إكرام الميت دفنه» وذلك أيضا حتى لا تتشوه صورة الإنسان الذى كان في حياته يظهر للبشر بصورة حسنة نظيفة، فإذا وصل إلى درجة التعفن وانتشار الحشرات والبكتيريا في أجزاء جسده ورآه الناس على تلك الحال، فما من شك في أن ذلك يسئ إلى الميت (حتى إن كان ميتاً) ويظهر في أعين الناس وحواسهم بشكل غير مستحب ولا يتناسب مع آدميته التى كرمه الله بها.

وبطبيعة الحال، فإن التعجيل الزمنى بمواراة الموتى في التراب ووضعهم في مكانهم الطبيعى الذى يحمى البشر (الذين مازالوا يعيشون في الأرض) من الآثار السيئة لما سوف يحدث في وقت وشيك في جثثهم، يرشدنا إلى ضرورة تطبيق ذات القاعدة على كل مسبب

للتلوث البيئى والصحى بتعجيل التخلص منه بالشكل المناسب وفى المكان المناسب فلا نترك مثلاً القمامات المتراكمة في الطرق والأماكن المأهولة بالسكان لفترات زمنية مهما قصرت، ويجب أيضاً أن ننتبه إلى مشكلة تراكم مخلفات العمليات العلاجية فى المستشفيات وغيرها من الوحدات الصحية وعدم سرعة التخلص منها حيث أن ذلك لاشك لا يعرقل ما يحدث داخل تلك الوحدات الصحية من عمليات علاجية فحسب، وإنما أيضاً يمكن أن يقضى على فعاليتها وجدواها من الأصل.

(٣) الارتباط المطرد بين أهمية الصناعة والإنتاج، وبين طول الفترة اللازمة للإنجاز (قصة نوح عليه السلام): فنوح عليه السلام كان أول رسول يبعث إلى أهله فى الأرض (الإمام الحافظ بن كثير. ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص٥٤)، ونتيجة لعناد الغالبية العظمى من قومه (ويقال لهم بنو راسب) وإصرارهم على الكفر. أوحى الله تعالى إليه ببناء سفينة ضخمة لكى تقله ومن تبعه من البشر مع أزواج من كل المخلوقات الأخرى وقت الطوفان المعروف. ويتضح من الآيات الكريمة -بشكل غير مباشر- أن تلك العملية الصناعية للسفن قد استغرقت وقتاً طويلاً ليس فقط في صناعتها ذاتها، ولكن أيضاً فى توفير الخامات اللازمة لإعدادها بالشكل الملائم للعملية المستهدفة لتصنيعها. كما يتضح من الآيات الكريمة أن طول فترة التصنيع لا تنطوى فقط على مشقة بدنية للمنتج والصناع المشاركين، ولكنها أيضاً قد تعرض أصحابها الجادين لمشاكل معنوية وإحباطية خاصة من

قبل البشر، حيث يزداد احتمال حدوث ذلك إذا لم يكن الهدف النهائي من استخدام المنتج غير واضح تماماً لدى العامة، وبطبيعة الحال فيمكن لذلك أن ينطبق على الصناعات الإبداعية المبتكرة.

من أجل هذا، يتوقع للصناعات طويلة الأجل أن تنطوي على مشاكل أضخم وأكثر تعقيداً من نظائرها قصيرة الأجل، وذلك الذي يمكن أن يفسر عزوف كثير من (المتكاسلين) عن تحمل مخاطر ذلك النوع من الصناعات كما أن ذلك يفسر أيضاً السبب في (تقدم) الأفراد والدول التي تُقدِم على إنجاز ذلك النوع وتفوقهم على غيرهم، بل وتمتعهم في غالبية الأحوال بأشكال أفضل من الثراء وارتقاء مستويات المعيشة، والسبب في هذا يكون غالباً نتيجة لانطباق القاعدة المستبطة من تلك القصة النموذجية والتي أشرنا إليها كعنوان فرعي، وهو أنه بقدر تلك المشقة والمخاطرة التي يتحملها المنتج وطول فترة ذلك التحمل، بقدر ما يتوقع للصناعة من ارتفاع في مستواها، بل ومن طول أمد زمني في الاستفادة منها وفي التمتع بآثارها الإيجابية الفعالة أيضاً.

كل ما سبق تم استنباطه استرشاداً بالآيات الكريمة: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ

التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلا قَلِيلٌ ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (هود: ٣٧-٤١).

(٤) هناك ارتباط وثيق بين الحلول وبين الوقت الزمنى (كأمثلة: قصة إبراهيم وزوجته هاجر وابنه إسماعيل؛ قصة أيوب؛ قصة يوسف؛ محمد والمقاتلين معه):

من السمات الواضحة فى طبيعة الخلق البشرى أن الإنسان دائما يتعجل كل شئ، يتعجل تحقيق الأهداف والآمال، يتعجل جنى ثمار ما أداه من عبادات وابتهالات، يتعجل التخلص مما يعانى من كرب وضيق ومشاكل تعترض حياته ...الخ.

ولقد أشار الله إلى تلك المعانى فى مواضع مختلفة من القرآن الكريم مثلما نجد في الآيات الكريمة: ﴿كَلا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾ (القيامة: ٢٠، ٢١)؛ ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ (الانبياء: ٣٧)؛ ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ (الاسراء: ١١).

والواقع أن القصص القرآنى يذخر بالدروس المستفادة التى تؤكد على تفاوت الفترة الزمنية التى يمكن أن يتحقق بعدها الهدف المرجو ونركز اهتمامنا هنا على استهداف التخلص من مشكلة معينة أو من موضع معين غير مرغوب فيه حيث يمكن أن تفيدنا مثل تلك الدروس

ليس فقط على مستوى الفرد أو الأسرة، ولكنها توضح لنا أن المشاكل المتراكمة التى تعانى منها الدولة خاصة إذا كانت ذات اقتصاد ضعيف فى الأصل ـ يجب أن يتم حلها بشكل تدريجى ومرحلى مع الصبر على ما يحدث من نتائج وعدم إبداء الحكم النهائى على منفذى القرار (ومتخذيه) إلا فى نهاية الفترة التى حددها هؤلاء ـ وفقا لدراساتهم وتصوراتهم مع ضرورة الانتباه إلى أن هناك توقيتاً (إلهياً) مهيمناً على كل ما تم وضعه من توقيتات بشرية لتحقيق الأهداف والحلول المرجوة. والعبرة فى التقييم البشرى للموقف المعنى ـ إذن يكون ببذل الإنسان ـ أو الدولة ـ كل ما وسعه بشكل جاد ومخلص.

ففى قصة سيدنا إبراهيم وزوجته سارة وابنهما إسماعيل عليهم السلام نجد أحد الدروس المستفادة للتأكيد على اعتبار الوقت كأحد العناصر المرتبطة بحلول المشاكل والأمور، حيث يوجد الحل **اللحظى** نتيجة لارتباطه بنتيجة مصيرية تتعلق بحياة الإنسان وذلك حين همّ إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام امتثالاً لأمر الله سبحانه ففى تلك اللحظة المصيرية المرعبة، أنزل الله سبحانه وتعالى كبشاً كحل بديل فورى ليتم ذبحه بدلاً من الإنسان وكان ذلك من فضل الله الذى منّ به على البشر أجمعين وإلا أصبح ذلك واجباً على البشر من بعد ذبح إسماعيل عليه السلام. وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿**فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ** ﴿ **وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ** ﴿ **قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي**

﴿الْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ۞ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾
(الصافات: ١٠٢-١٠٧).

وفي موضع آخر من قصة هذه العائلة الكريمة نلاحظ أن حل مشكلة أو أزمة أخرى تم على أجل زمني أطول نسبياً لحكمة أرادها الله وهي قيام كل الحجاج من البشر بعد ذلك أثناء شعائر الحج بما قامت به السيدة هاجر عليها السلام من تحركات متتالية بحثاً عن الماء. فقد نفذ ما كان معها من ماء وشعر ابنها بالعطش الشديد حتى أنه كان يتلوى مما دفعها إلى البحث عن ماء لتسقي به ولدها فذهبت إلى الصفا الذي كان أقرب جبل إليها ونظرت من خلاله باحثة عن وادي يتوقع أن يكون به زرع وماء وعندما أبصرت به نزلت إليه فلم تجد أي ماء وظلت تسعى باحثة حتى بلغت المروة فقامت عليها وظلت تبحث من خلال تلك البقعة عن ضالتها المنشودة، ولم يتحقق ما أرادت إلا بعد أن كررت نفس ما فعلت سبع مرات، وبذلت ما يبذله الإنسان من مشقة ومجهود معتادان في مثل تلك المواقف، وبعد ذلك أراد الله سبحانه أن يحل لها المشكلة عندما أرسل لها ملكاً أظهر لها بئر زمزم التي أصبح الناس يستفيدون من مياهها المقدسة حتى الآن. أي أن الحل هنا أصبح ساري الآثار الإيجابية على الأجل الطويل كما أنه لم يتم بشكل لحظي (القصة واردة في: الإمام الحافظ ابن كثير، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص١٢٥).

ومن القصص التي يندر ألا يعرفها أحد من المسلمين حتى صغار السن منهم والتي يمكن أن تفيدنا في ذلك المقام هي قصة سيدنا أيوب عليه السلام. ففي تلك القصة نجد أن الله سبحانه وتعالى ابتلى ذلك النبي الصالح بالمرض والفقر وكذلك سلب منه كل ما كان ينعم به من أولاد وأهل ولم يبق له سوى قلبه ولسانه يذكر بهما الله سبحانه وتعالى. وفي تلك القصة الشائقة الرائعة، نجد أن الحل لم يتم إلا بعد سنوات من المعاناة الشديدة لذلك العبد الصالح برغم صبره ومداومته على ذكر الله والدعاء له. فعندما أرادت المشيئة الإلهية واقتضت، ألهم الله سبحانه وتعالى أيوب عليه السلام بالوسيلة السليمة للاستشفاء، وعوضه بأفضل مما كان عليه حاله قبل المعاناة من ذلك الابتلاء الاخطبوطي، وحتى مشكلته مع زوجته الصابرة حلها الله سبحانه وتعالى ولكن بعد أجل زمني أيضاً وصدق الله العظيم في قوله الكريم: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۞ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۞ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۞ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٤١-٤٤).

إذن، فقصة أيوب عليه السلام تشير إلى أحد أنماط الحلول وهي **الحلول الآجلة، والحلول طويلة الأجل** حيث نقصد بالحلول الآجلة تلك التي لا تحدث إلا بعد أجل زمني طويل، ونقصد بالحلول الطويلة الأجل تلك التي تمتد بآثارها الإيجابية المرغوبة على أجل زمني طويل.

أما عن قصة يوسف عليه السلام، فهي أكثر شيوعاً حتى بين غير المسلمين ـ وكلنا نعرف أن مشاكله تم التغلب عليها وحلها على أجل بعيد أو طويل جداً، فقد ظل في معاناة متراكمة الأنماط وممتدة الفترات الزمنية منذ أن كان طفلاً صغيراً وألقاه إخوته في البئر بقصد التخلص منه ثم تم بيعه بثمن بخس باعتباره طفلاً لا قيمة له، ومروراً بقصة الإغراء من قبل امرأة العزيز وانتصاره على هوى النفس ومع ذلك يتم حبسه لمدة طويلة ثم يعاقبه الله بمد فترة حبسه لفترات طويلة نسبياً بشكل إضافي نتيجة أنه نسى الله ربّه، والتمس الإفراج عنه من البشر الذين لا يملكون في الواقع من الأمر شيئا... وتبدأ الانفراجه بعد تعيينه على خزائن الأرض ولكن تبقى مشكلته مع أشقائه الذين يسوقهم الله إليه ليسمع منهم افتراءاتهم عليه، التي يصرون ـ برغم أخطائهم على إلصاقها به ومع هذا يظل على صبره عليهم ويستمر في سلوكياته وردود فعله الحكيمة الرشيدة وفقاً لما علمه الله وفي إطار المنهاج التربوى الربانى الذى نشأ وترعرع عليه طيلة السنوات الطوال العصيبة من حياته .. وبعد كل ذلك العمر الطويل من حياته (الذى يربو على العشرين عاماً كما جاء في بعض الروايات)، تتم الحلول النهائية، وتتحقق رؤياه المبشرة التي كان قد رآها وهو طفل، ونصحه والده بعدم إخبار إخوته بها تجنباً لحسدهم ولأذيتهم... ولكن، حقاً (لا يمنع حذر من قدر) و (كل شئ بأوانه).

ولضيق المساحة هنا، ولسبب أهم وهو الثراء الكبير لما تضمنته سورة يوسف من دروس رائعة يمكن أن تفيد فى هذا الصدد، فإننا نوصى بالرجوع إليها فى كتاب الله وتدبر كل آية، بل وكل كلمة وردت فيها، فهى بحق قصة شاملة رائعة وهى بمثابة دليل متكامل للسلوك البشرى القويم خاصة في حالات الابتلاءات والهموم.. والمهم أن يتدبر القارئ المتمعن لتلك السورة المرشدة ويلاحظ أنه لم يحدث حل فورى لأى شكل مما عاناه يوسف عليه السلام من ابتلاءات، وأنه حتى لو بشر الإنسان برؤيا صادقة عن سعادة تتحقق له فليس بشرط أن يتحقق ذلك فى اللحظة والتو، ولا حتى فى الأجل القصير، ولا فى الأجل الطويل، بل يمكن أن يتحقق في الأمد البعيد، بل والبعيد جداً حيث يحدث الاستسلام والرضى الكاملين بما عليه الإنسان من حال، وحيث لا يتوقع الفرج (برغم انتظاره آملاً فى الله عز وجل) تحدث المفاجأة الإلهية الرائعة، وتتابع الحلول وتتوالى الجوائز.. والعبرة على أية حال بمفاجآت الآخرة الجميلة.

ومن القصة السابقة يمكن أن يتضح لنا درس بالغ الأهمية وهو أن **توقيت الحلول عادة ما يكون غير متوقع للإنسان**، وعادة ما يحدث بعد أن يكون الإنسان قد بذل كل ما فى وسعه لإيجاد تلك الحلول، وسعى لها سعيها الشاق والكافي، وهو درس تربوى إلهى يلقنه الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين على وجه الخصوص حتى يظلون على تبعيتهم لخالقهم ويظل يقينهم قائماً على أن كل شئ بيد الله وحده مهما بذلوا

من محاولات وجهود، وحتى لا يأخذ الإنسان الغرور ويدعى أن كل ما يتمتع به من علم أو ثروة أو من أرباح إنما أوتيه على علم منه أو نتيجة لقدراته الذاتية البحتة فإن ذلك من شأنه أن يوقعه فى أحد أشكال الشرك القبيحة والمدمرة.

والواقع أن فى قصة النبى ﷺ ومن معه من المسلمين يوم الأحزاب تأكيداً على ما سبق ذكره من معنى وتوجيه وتأصيل لتلك القاعدة المتعلقة بالعلاقة الطردية الوثيقة بين الحلول وبين الوقت الزمنى. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة: ٢١٤). فالمشكلة هنا كبيرة، وعلى الرغم مما بذله النبى ﷺ والذين معه من مسلمين من مجهود رائع وما بذلوه من بلاء حسن بل وعظيم جهاداً فى سبيل الله ودفاعاً عن دينه، إلا أن الله سبحانه وتعالى امتحنهم امتحاناً عظيماً فى ذلك الصدد حتى أنهم بلغوا من البلاء مبلغ الزلزلة. وفى ذلك تتضح بعض التفاصيل الأخرى المكملة لتلك الصورة الصعبة التى كان عليها المؤمنون وقتها فى حديث صحيح: فعن خباب بن الآرت قال: قلنا يا رسول الله ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا فقال: «إن كان قبل أحدكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه لا يصرفه ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه لا يصرفه ذلك عن دينه» ثم قال «والله

ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الركب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم قوم تستعجلون» (ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ١، ص٣٢١).

(٥) بركة الوقت (داود وسليمان عليهما السلام): يغفل كثير من البشر (خاصة الذين تطغى عليهم الناحية المادية ونزعتها) ما لعنصر البركة من أهمية نسبية أكبر من مجرد الزيادة المطلقة في الأشياء المرغوبة لأن تلك الزيادة المطلقة لا تعتبر شرطاً كافياً لتحقيق النماء في أفضل صورة له حيث يمكن أن تقابل تلك الزيادة المطلقة خسائر أو تضحيات أو سلبيات تقلل من صافى منفعتها بل وقد تقضى عليها تماماً وأحياناً أيضاً تفوقها. بينما إذا حل عنصر البركة بأى شئ فإنه يضمن النماء فى أفضل صوة له بأقل خسائر أو سلبيات ممكنة (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى: زينب الأشوح، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).

وما قيل سابقاً يمكن أن ينطبق على عنصر الوقت أيضاً بدليل أن هناك حديثاً نبوياً صحيحاً يشير إلى انخفاض البركة فى وقت آخر الزمان الدنيوى فعن أنس ﷺ أن النبى ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان فتكون السنة كالشهر، والشهر كالجمعة، وتكون الجمعة كاليوم، ويكون اليوم كالساعة، وتكون الساعة كالضَّرمة[١] بالنار» ([١] أى الجمرة، أحمد بن حنبل، الترمذى، صحيح الجامع الصغير وزيادته، جـ٢، ٧٤٢٢-٢٦٠٢).

- ويمكن - على ضوء ما سبق- أن نستنبط معياراً **لقياس بركة الوقت** وهو- (مقدار أو حجم الإنجازات الإيجابية والفعالة ومقدار التنوع في تلك الإنجازات وعدد المستفيدين من تلك الإنجازات أو النطاق الذى تنتشر فيه آثارها التى تتم فى خلال وحدة أو فترة زمنية معينة).

وبتطبيق ذلك المعيار على ما حدث فى حياة الأنبياء الصالحين عموماً نجد أنهم كانوا يتمتعون بنعمة بركة الوقت بدليل الطبيعة المتميزة لما كانوا يقدمونه وينجزونه من أعمال مع ضخامة أعداد البشر الذين كانت تعمهم تلك الأعمال. إلا أن هناك منهم من تمتع ببركة الوقت بشكل أفضل وأكثر تميزاً من غيرهم ونخص بالذكر هنا داود وسليمان عليهما السلام.

فقد كان كل منهما ذا قوة فى الدين، مضطلع بكل أعباء والتزامات الدعوة والنبوة والملك أيضا، وكان داود عليه السلام يصوم يوماً ويفطر يوماً ويقوم نصف الليل، وكان يعمل بالتجارة وبالصناعة كمهن تكسبية معيشية، كما كان قاضياً يفصل فى قضايا الرعية بنفسه، وكان لا يكف عن التسبيح والذكر لله رب العالمين. وما من شك فى أن ذلك كله كان في ذات الوقت الزمنى الذى لا يستطيع الإنسان العادى إلا القيام بأعمال المعيشة المعتادة بالكاد. إلا أننا نجد مثالاً يقرب إلى تصورنا **آلية عمل عنصر البركة** فى وقت داود عليه السلام وهو ما يتعلق بتعليمه كيفية صناعة الدروع الحديدية بحيث أتاح الله سبحانه وتعالى فرصة توفير الوقت الكبير المستغرق في إعداد خامة

الحديد وتطويعها لكى تصبح صالحة التشكيل والتصنيع «وألنا له الحديد»، حيث جعل الله الحديد له خامة لينة كالشمع، والعجين بحيث يسهل تشكيلها وتصريفها فى يده من غير الحاجة إلى عمليات الإعداد الشاقة التى تتطلب وقتاً زمنياً طويلاً مثل إحمائه بالنار وضربه بالمطرقة (لمزيد من التفصيل حول تلك التسهيلات: ارجع إلى نواف بن صالح الحليسى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص ص ١٠-١٢). وكان من مظاهر بركة الإنجازات ذاتها أنه عندما كان داود غلاماً راعياً للغنم ضعيف البنية مكنه الله تعالى أن يقتل جالوت الجبار بحجر أرسله من المقلاع فقط وليس بسيف أو برمح أو بأى سلاح، ولم يكن يقاتله وقتها أيضاً باستخدام أى معدات للحرب مثل الدروع أو التروس.

وبالمثل كان الحال مع سليمان عليه السلام الذى كان يتميز بطموح دنيوى كبير، وكان ينعم بالحكم والهيمنة ليس فقط على البشر، وليس فقط على المخلوقات المنظورة فقط، بل منحه الله نعمة تسخير الإنس والجن والطير والريح له وعلمه لغة الطير والحيوان بالإضافة إلى لغة الإنس وبطبيعة الحال أنه كان لابد على علم بلغة الجن الذين يعملون جميعهم لديه وتحت أمره. يوضح ذلك الحال أنه عليه السلام كان يتمتع بدرجة كبيرة من بركة الوقت التى يستدل عليها مما كان يتحمله من كم المهام الهائلة الضخمة التى تفوق أى تصور بشرى، كما يستدل على الارتفاع الضخم لدرجة تلك البركة بذلك التنوع الكبير من المخلوقات التى يشملها برعايته الدنيوية وما يتضمنه هذا التنوع من

ضخامة أعداد لا يتصورها عقل. وفى ذات الوقت فقد كان سليمان عليه السلام يتفقد رعيته بنفسه ويتولى إصدار الأحكام بنفسه أيضاً، ومن أكثر الأدلة شيوعاً على ذلك تهديده بمعاقبة الهدهد نتيجة لتأخره عن ميعاد وصوله ما لم يكن هناك مبرراً منطقياً وراء حدوث ذلك (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى: زينب الأشوح، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، الحافظ بن كثير، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م).

وقد يعترض قائل بأن القصتين السابقتين تتعلقان بمثالين أقرب للخيال من الواقع الإنسانى المعتاد لأنه لا يوجد من البشر -على الأقل المعاصر منهم- من يتمتع بتلك الكرامات والمعجزات الإلهية. ويمكن لذلك المعترض أن يرجع بركة الوقت للطبيعة المقدسة الفريدة لداود وسليمان عليهما السلام كأنبياء يحظون دائماً بمعجزات لا تتاح لبشر. ولكننا نذكر هنا أن ما سيقال عن هذين النبيين الكريمين لاشك سينطبق على كل النماذج النبوية الأخرى التى اخترنا الحديث عنها في هذا الصدد، لكن يجب ألا ننسى أبداً أن الله سبحانه لا يفعل شيئاً إلا وله حكمة ومدلول.. حتى إن كان معجزة يختص بها فرد دون آخر ونحن هنا نحاول أن نقتدى بتلك النماذج البشرية المثالية ونستقرأ ما يمكننا من مدلولات وقواعد ومقاييس قابلة للتطبيق على حياتنا البشرية المعتادة.

وبناء عليه، فإن بركة الوقت هى أمر موجود بالفعل وله عوامل تزيد من جدواها وعوامل أخرى تتسبب فى التأثير السلبى على آلية

تحققها أو جدواها (وللتعرف على ذلك يرجع إلى: زينب الأشوح، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م)، وبالفعل فإن أفضل معيار محسوس يمكن أن ندركه لتحديد مدى وجود تلك البركة في الوقت من عدمها هو تطبيقها على حياتنا اليومية وعلى إنجازاتنا، ولتكن قصتي داود وسليمان عليهما السلام مع هذا قدوة نموذجية مثالية علينا أن نستفيد من أبعادها قدر استطاعتنا.

وبالإضافة إلى العوامل التى سبق توضيحها لترشيد تخصيص الوقت، فإننا يمكن أن ننوه إلى إمكانية تحقيق بركة فى الوقت بحسن التنظيم والتخطيط والتعامل الجاد والجيد مع الوقت، ويجب أولاً وأخيراً أن نحترم الوقت ونعتقد أننا بقدر ما نعمل للوقت حساباً، فسوف يكون الوقت أكثر عطاءً لنا. ويجب أيضاً أن نتعامل بمعيار البركة السابق ذكره بشكل يتلاءم مع القدرات والإمكانيات الفعلية للإنسان لأنه لو حاول أن يزحم وقته بالعديد من الإنجازات والالتزامات التى تفوق قدراته فسوف يحدث عكس المستهدف ويمكن أن يعجز عن فعل أى منها جزئياً أو بشكل مطلق.

(٦) وجوب تحديد أجازة أسبوعية من العمل التكسبى (أصحاب السبت): فكما يحث الدين والعقائد والقوانين، بل والفطرة البشرية على ضرورية قيام الإنسان بعمل ما من أجل التكسب وتوفير احتياجات المعيشة للمرء ولمن يعول، بل ومن أجل التمتع بحياة ذات نمط طبيعى مقبول في حياة البشر، فإن القصص القرآنى يشير إلى

نصيحة أخرى ضمنية تتمثل في وجوب الحصول على أجازة أسبوعية أو كل فترة زمنية يجب على الإنسان أن ينقطع فيها عن أداء عمله المادى مهما كانت فرص التكسب فيه وذلك على سبيل الاسترخاء وتجديد نشاط الذهن والبدن، والقيام بالالتزامات الأخرى المكملة لضرورات الحياة ومتطلباتها كما سبق أن أوضحنا بتفصيل أكثر فى أجزاء سابقة من تلك الدراسة.

وبالرجوع إلى قصة أصحاب السبت، نجد أن الله قد أوجب على فئة بشرية يوماً معيناً من أيام الأسبوع (وهو السبت) كى ينقطع فيه هؤلاء عن القيام بالأنشطة الاقتصادية والتكسبية التى اعتادوا على إنجازها طوال الأيام الأخرى من الأسبوع. وهنا نجد أن العلة من ذلك الأمر الإلهي ليست فقط مجرد تحقيق منافع شخصية كتجديد النشاط والتماس وسائل الراحة والتواصل بين الأقارب والأصدقاء. ولكن كانت هناك أسباب أخرى مختلفة وراءه سنوضحها بعد ذكر الآية الكريمة المتضمنة للجزء المعنى من قصة أصحاب السبت ﴿**وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ**[١] **إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**﴾ [[١] أى يعتدون فيه بمخالفة أمر الله فى شأنه] (الأعراف: ١٦٣).

فوفقاً لتلك الآية الكريمة (وآيات فى سور أخرى مثل آية ٦٥ من سورة البقرة وآيتى ٤٧، ١٥٤ من سورة النساء وآية ١٢٤ من سورة

النحل)، فإن الله سبحانه وتعالى كان قد فرض على أهل قرية ساحلية تسمى بقرية «آيلة» أمراً بعدم الصيد إطلاقاً في يوم السبت وبالتفرغ الكامل للعبادة فيه. وكان ذلك الأمر كنوع من الابتلاء وامتحان أهل هذه القرية في مدى طاعتهم لله عز وجل، خاصة أن الصيد البحرى كان يمثل النشاط الاقتصادى الرئيسى لأهل تلك القرية، وبالتالى فإن التوقف عن مزاولة ذلك النشاط الحيوى يوماً كاملاً فيه ينطوى على قياس دقيق لإرادة هؤلاء فى مدى امتثالهم لأوامر الله أو عصيانهم لها.

وبعيداً عن التوغل فى الجوانب الأخرى الشيقة لتلك القصة المتميزة (حيث يمكن التعرف على مزيد من التفاصيل بالرجوع إلى: نواف بن صالح الحليسى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير، مج٢، جـ٣) فإننا يمكن أن نشتق قاعدة هامة: وهى ضرورة الحصول على أجازة محددة بعد كل فترة عمل محددة ومحاولة ربط ميعاد تلك الأجازة بمدلول شرعى واضح. وقياساً على ذلك فإن يوم الجمعة هو من أكثر الأيام ملاءمة كأجازة للمسلمين حيث حرم فى جزء منه ممارسة أى نشاط اقتصادى وذلك فى خلال وقت خطبة الجمعة وأداء صلاتها، ويلاحظ أنه يجاز فى ذلك المثال اقتطاع ذلك الوقت فقط كأجازة ومعاودة العمل فى ما تبقى من اليوم بدليل إجازة الشرع بالانتشار فى الأرض والاستمرار فى السعى بعد انقضاء ذلك الوقت المقدس المفروض على كل مسلمى العالم أن يتفرغوا فيه تماماً

لأداء صلاة الجمعة والاستماع إلى خطبتها خاصة بالنسبة للرجال. (وذلك كما أوضحنا بالتفصيل فى جزء سابق).

وبناء عليه، فقد تكون الفطرة العقائدية البشرية وراء تخصيص يوم أجازة أسبوعى في كل بقاع العالم بشكل رسمى، حيث يختلف ذلك اليوم وفقاً لاختلاف العقائد والأديان، فنجده يوم الجمعة للمسلمين. ويوم السبت لليهود، ويوم الأحد للمسيحيين، ونحن نعتقد أن التوغل البحثى التاريخى والجغرافى ليوم الأجازة الأسبوعى لدى الطوائف البشرية المختلفة يمكن أن يكون مادة بحثية طريفة وجديدة، ويمكن أن تمدنا في النهاية بمعلومات مدهشة تكسر حدة ما يصيب مواضيع البحث العلمى أحياناً من رتابة وملل وجهود.

(٧) العملة النقدية وإمكانية استخدامها كمؤشر زمنى للوقت (أهل الكهف): فالعملة النقدية ـ في الواقع ـ تنطوى على أبعاد كثيرة توضح أهميتها الكبيرة، بل والمصيرية في كثير من الأحوال. ومن بعض الدلالات الهامة على ذلك أنها مؤشر بالغ الأهمية على الهوية وعلى الأهمية النسبية لها، فمثلاً كان الدينار الإسلامى فى فترة الخلافة الإسلامية المزدهرة يتمتع بقوة كبيرة فى قيمته الذهبية الذاتية وفى قوته مقارنة بالعملات النقدية العالمية الأخرى وقد لا نكون مبالغين فى أن العملة الإسلامية آنذاك كانت تتمتع بذات الهيمنة التى أصبح يتمتع بها الدولار الأمريكى في وقتنا المعاصر ـ أو تفوقها ـ، فقوة العملة النقدية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقوة الاقتصاد القومى المنتسبة إليه وتدل

أيضاً عليه. والعملة النقدية يمكن أيضاً أن تدل على النمط الاجتماعى والثقافى السائد من خلال شكلها الذى تم صكها عليه، وكلنا نعرف - كمثال على ما نذكر - أنه بمجرد انهيار النظام العراقى تم إعدام العملات النقدية الوطنية التى كانت تحمل صورة الرئيس السابق وبدء على الفور في صك عملات بديلة بشكل يتناسب مع العهد المستحدث.

أما فى قصتنا الحالية، فيتضح لنا أن العملة النقدية يمكن أن ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالزمن وأن تستخدم للدلالة على فترة تاريخية محددة منه. ففى الآية الكريمة: ﴿..فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ ...﴾ (الكهف: جزء من الآية ١٩). ووفقاً لما جاء في تفسير القرآن العظيم لابن كثير (مج٣،جـ٥، ص٩١، ٩٢)، فإن أحد أهل الكهف بعد استيقاظه ذهب إلى المدينة (ويقال أن اسمها افسوس) لشراء الطعام له ولرفقائه فوجد الحال متبدلاً تماماً ومع هذا استمر إلى غايته وذهب إلى أحد بائعى الطعام لشراء ما يريد، وتبدأ الدلالة التى تفيدنا فيما نحن بصدده بما حدث بعد دفع النقود التى كانت مع أحد أهل الكهف المعنيين، وردود فعل البائع ومن أشهدهم على تلك العملة النقدية التى أثارت دهشتهم «فلما رآها ذلك الرجل أنكرها وأنكر ضربها فدفعها إلى جاره وجعلوا يتداولونها بينهم ويقولون لعل هذا وجد كنزاً فسألوه عن أمره ومن أين له هذه النفقة لعله وجدها من كنز وممن أنت؟ فجعل

يقول أنا من أهل هذه البلدة وعهدى بها عشية أمس وفيها دقيانوس فنسبوه إلى الجنون فحملوه إلى ولى أمرهم ...» والمغزى الواضح من تلك القصة الشائقة أن اختلاف العملة النقدية هو الذى عَرَّف أهل المدينة بأمر أهل الكهف وليس مظهر مبعوثهم، مما يدفعنا إلى استنتاج أن (شكل العملة) يلعب دوراً أكبر من (شكل الإنسان) في الدلالة على حقبة زمنية معينة وعلى اختلافها عما عداها.

والواقع أن ذلك يمكن أن يقودنا إلى نتيجة أخرى ذات أهمية علمية خاصة، وهى إمكانية استخدام العملات النقدية فى التصنيف التاريخى والجغرافى، واعتبارها من المؤشرات التاريخية الاقتصادية أيضا. وبناء على ذلك، فإن العملة النقدية المتداولة يمكن أن ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمجموعة محددة من الأحداث الاجتماعية أو السياسية التى تتم على المستوى المحلى أو العالمى.

وبالقياس على ما سبق، فإن تلك الأحداث المتميزة يمكن أن تستخدم بدورها في التصنيف التاريخى الدقيق، بل أنها يمكن أن تستخدم في الفصل التاريخى بين حقبة سابقة يتم تجاهلها تماماً وحقبة زمنية أخرى يبدأ في الاعتداد بها وأخذها وحدها فى الاعتبار. وذلك مثلما فعل عمر بن الخطاب ﷺ حيث يرجع إليه الفضل الأول فى اختيار يوم الهجرة كبداية للتاريخ الإسلامى (عباس العقاد، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص٢١٣).

والواقع أن القصص القرآنى للأنبياء، وقصص الصحابة أيضاً ذاخرة بالدروس المستفادة فى مجال تخصيص الوقت واستخدامه بأسلوب رشيد وفعال، لكننا نفضل الاكتفاء بذلك القدر حتى تتاح لنا أيضاً فرصة التعرف على ما يمكن أن يكون قد ورد بالتراث الفكرى الإسلامى القديم من أفكار متميزة فى المجال المعنى. ذلك ما نود إلقاء بعض الضوء عليه فى الجزء التالى والأخير من استعراضنا لبعض الزوايا الهامة للوقت وفقاً للمنظور الإسلامى النموذجى.

٧/٣: الوقت في التراث الفكرى الإسلامي: فى حدود معلوماتنا وما توصلنا إليه من نتائج بحثية فى ذلك المجال، لوحظ عدم وجود دراسة موجهة بعينها للبحث في مجال الوقت، وإن تم التعرض إليه، فيكون ذلك كنقطة تعرض - ضمناً - بين نقاط أو مجالات بحثية أخرى، لذلك فقد وجدنا صعوبة في استنباط نقاط متميزة حول الوقت مما تعرفنا عليه من نماذج الدراسات الفكرية المعنية مثل تلك المتعلقة بابن سينا وأحمد بن على الدلجى ومحمد بن الحسن الشيبانى وجعفر بن على الدمشقى... الخ.

ومع هذا، فإن هناك بعض النقاط ذات التوجيهات الإرشادية المفيدة حول الوقت التى تمكننا من التقاطها من مجموعة الدراسات التراثية ونوجزها فيما يلى: